

أثر إشهار العولمة على المرأة

بوجمعة جهيدة

جامعة وهران

لقد حولت العولمة العالم إلى سوق كبير مملوء بألوان وأشكال من المنتوجات المفيدة والضارة ، وجعلت المرأة مروجاً لها ، لا بإمكانياتها العقلية والعلمية ، بل بجسدها وحده الذي حوّل إلى وحدة اقتصادية تعمل على جلب الربح والفائدة دون النظر إلى الجانب الإنساني أو الأخلاقي أو الديني .

لقد حولت العولمة المرأة إلى سلعة استهلاكية ، والجمال إلى عمل وصناعة ، واعتبرتها جسدا مادياً محضاً موضوعاً للرغبة المادية ، وأعطت مقياساً واحداً للجمال ، وهو أن تكون نحيلة على نموذج الدمية " باربي - BARBIE " وتتوفر على مقدار كبير من الإثارة والجاذبية .

تجتهد أغلب النساء في العالم - رغم هوياتهن المختلفة - للوصول إلى النحافة ، ولما كان الحفاظ على هذا الشكل من الجسد من الصعوبة بمكان إلا لدى مجموعة من النساء المتفرغات لجسدهن مثل الممثلات وعارضات الأزياء وفتيات الإعلانات ... دخلت نساء كثيرات في أنواع لا متناهية من الحميات ، وأصيبن بكثير من الأمراض النفسية مثل مرض فقدان الشهية العصبي " ANOREXIA NERVOSA " ، وهو إحساس يملك المرأة - مهما بلغت من الجمال والرشاقة - بأنها قبيحة وبدينة فتمتنع عن الأكل بسبب قلقها الشديد بخصوص وزنها وجمالها ، وهو المرض النفسي الوحيد الذي يقود إلى الموت ، حيث ينحصر عدد الوفيات ما بين (5) إلى (10) بالمائة نتيجة مضاعفات هذا المرض الخطير الذي لا يُكتشف عادة إلا بعد فوات الأوان (1) .

وتروجيا للنحافة ، فقد انتعشت صناعة الأغذية التي تدّعي فيها بعض المصانع بصنع أغذية خاصة للتخفيف ، كما انتعشت صناعة الأدوية الخاصة بذلك أيضاً ، التي تكون ضارة في الغالب ، كما انتعشت شركات صناعة الأدوات الرياضية الخاصة بالتخسيس ، فضلاً عن شركات الألبسة ومستحضرات التجميل . وتعرض هذه الشركات إشهاراتها اللامحدودة التي تتكرر وتتجدد كل يوم وتترجم إلى كل لغات العالم وتأخذ مساحات واسعة من ساعات البث ، بل ويختار منتجوا هذه السلع - بقدر ما يدفعون - الأوقات الأنسب التي تكون فيها نسبة المشاهدة عالية جداً ، والتي هي الفواصل بين

نشرات الأخبار وما بعدها ؛ النشرات التي يُراد بها - حُبثًا - أن تركز على الأخبار السيئة دائما حتى يندفع الناس إلى متابعتها أَمَلًا في الحصول على الطمأنينة التي لا تأتي أبدا ، وهذه المتابعة المستمرة تضمن وقوع أكبر عدد من المشاهدين فريسة للإشهارات التي تعوّض عن القلق والخوف والتي تنتهي بشراء أي شيء ⁽²⁾ ، بل إن الإشهارات نفسها تتوجّه إلى الغرائز والانفعالات ولا تتوجه إلى العقل ، فالإشهارات الطبية على سبيل المثال تؤثر على غريزة الخوف فتنتشر صورة امرأة يسقط شعرها ويكتب تحت الإشهار " إذا لم تستعملي دهان كذا سوف تصابين بكذا ... " ⁽³⁾ .

لقد أصبحت برامج التلفزيون خاضعة لرغبة المعلنين عن السلع ، بحيث يتم اختيارها لتكون مناسبة للإعلانات بدلا من أن تثار الإعلانات المناسبة للبرامج التلفزيونية ⁽⁴⁾ فأصبحت القنوات التلفزيونية تُكثر من برامج طبخ الحمية وتعليم الرياضة للنساء وعرض الأزياء وتعليم فن اللبس والتجميل وفنون تصفيف الشعر وبرامج مسابقات الجمال ، التي تعرض المرأة النموذج لما يجب أن تكون عليه نساء العالم من رشاقة وجمال ، الأمر الذي يؤثر سلبا على النساء العاديات ويزرع فيهنّ عدم الثقة بالنفس ، فيدخلن في صراع عنيف مع برامج تخسيس الوزن ويبدأن في تجريب كل ما أنتج من مساحيق التجميل وكل ما ظهر من التقاطيع (الموضات) التي تتجدد بشكل لا ينتهي - ولو كان ذلك على حساب الضروريات من اللوازم - وحتى حينما تُبدع التقاطيع ، في أساليب التجميل ، بما لا يخطر ببال إنسان ، وما يخالف النظرة الإنسانية ، كصبغ الشعر بغير الألوان المعتادة ؛ بالأزرق والأحمر ، وغيرهما ...

هذا ، وأصبح ضغط الإشهار الخاص بالمرأة النموذج في الأفلام السينمائية أيضا ، وفي البرامج الغنائية وفي الدراما فضلا عن المجلات والصحف واللوحات الإشهارية والملصقات والرسومات على الجدران وعلى المحلات ⁽⁵⁾ ، بل حتى في الرسوم المتحركة التي كثيرا ما تضع السّمَان في موضع السخرية ، وحتى في البرامج الجادة ، كنشرات الأخبار حيث أصبحت النساء يُقدّمُن على اعتبارهن أجسادا جميلة قبل أي اعتبار آخر ، كما أصبح الجسد والشكل - وبخاصة في الغرب - المعيار الحقيقي للفوز بالوظائف ، وخصوصا الكاتبات والمسوقات والعاملات في البنوك والفنادق والطيران ، وكثيرا ما تُخيّر المرأة بين أن تكون جسدا بلا عقل ولا روح وبين أن تكون أُمّا مرضعة لا أكثر ولا أقل .

إنّ هذه الضغوطات جعلت بعض النساء يُجربن الحل الأسرع والأمثل رغم أنه مكلف جداً ، وهو الجراحات التجميلية التي انتشرت مراكزها الطبية في كل مكان ، ففي الولايات المتحدة أُجريت سنة (1998 م) ثلاثة ملايين عملية تجميلية لا تشمل التشوّهات الخلقية كما أُجريت ثلاثمائة ألف جراحة لإزالة الدهون خلال عام (2005 م) وأصبحت الكثير من النساء العربيات الغنيات ومن بينهن الفئات يُغيّرن أشكالهن حسب ما يحظن به ويفرطن في استخدام عمليات شقّط الدهون لإنقاص الوزن على الرغم من احتمال موتهنّ على إثرها أحيانا (6) .

يتوجّه إشهار العولمة - في الغالب - إلى الغرائز الجنسية فثربط السلع بصور النساء العاريات حتى لو كانت هذه السلع لا علاقة لها بالنساء ، كما تُربط الفنون والثقافات - في الشكل والمضمون - بالدعوة إلى الحرية الجنسية وثقافة الزنا والإجهاض والشذوذ ، وتنظم مؤتمرات عالمية من أجل تحقيق ذلك وتثير ضجة إعلامية كبيرة لهم كمؤتمر السكان الذي عقد في القاهرة سنة (1994 م) والذي أريد فيه تمرير وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق ، وتجيز وجود الأسرة الوحدية الحنص ، أي زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتطلب إطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي ، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي ... وفي مؤتمر المرأة في الصين في سنة (1995 م) الذي كان تأكيداً لمؤتمر القاهرة وتكميلاً لتوجهاته التي رغم معارضة رابطة العالم الإسلامي في مكة والحكومة الإيرانية والجماعات الإسلامية المختلفة والفاتيكان ورجال الكنيسة (7) ، استمرت المحاولات جاهدة في جلسات ومؤتمرات أخرى من بينها جلسة (51) لمركز المرأة بالأمم المتحدة في سنة (2007 م) الذي أصدر فيه وثيقة دولية تؤكد على أن للفئات الحق في الممارسة الجنسية دون اشتراط الزواج واعتبرت عفة الفتيات ظُلماً .. وعلى المجتمعات أن تتبرأ منه كما اعتبرت العذرية كبتاً جنسياً يتناقض مع حقوق الإنسان ، وأعطت حقوقاً قانونية للشواذ وأعلنت كذلك تجريم الزواج المبكر (8) .

لقد رسّخت هذه المؤتمرات والجلسات مفاهيم الإباحية في العالم الإسلامي - على وجه الخصوص - كما أنها دعمت المطالبة بالمساواة التي قدّمت في إطار المطالبة بالعدل وإعطاء الحقوق المهضومة ، مما جعل بعض مسانديها يفتقون ضدّ الإسلام الذي أقرّ العدل ولم يساو بين الرجل والمرأة - للخصوصيات الخلقية لكل واحد منها .

ويلاحظ على إعلان العولمة أنه كثيراً ما يركز على بعض الشخصيات المنحلة المشهورة ويقدمها بصفة البريئة والحزينة والمظلومة والمغдор بها ، حتى يتعاطف معها الجميع وتصبح مثلاً يُقتدى به ، مثلاً حدث مع الأميرة ديانا التي بكى الكثير من مختلف الأديان والهويات لموتها وحزنوا كما لو كانت أحداً من أهلهم واعتبروها أسطورة على الرغم من أن واقع موتها لم يكن يُشترَف ، وكانت قد دخلت مغامرات لا متناهية يعلم مَنْ بكى عليها من المسلمين أنها حرام ووصمة عار .

تعتمد العولمة أيضاً على نشر نمط سلوكي غربي للأفراد وتعرضه مفعماً بمعاني الحرية السياسية والاجتماعية ، يتعلق به الجميع فيترجعون عقائدياً وأخلاقياً ، ويفوتهم أن هذا النمط خيالي ، فهو للإعلان والدعاية فقط . فإشهار العولمة لا ينقل أحداث الجريمة والاعتصاب التي تحدث في الولايات المتحدة حيث يُذكر أنه في سنة (1991 م) قُتل في الجرائم ما يفوق (24) ألف أمريكي وأن (13) بالمائة من السكان يعيشون بلا مأوى وأن سبعة ملايين يعيشون في بطالة ، كما أن حشداً كبيراً من الفتيات والفتيان يأكلون من حاويات القمامة (9) ، ولا شك أن أي مسافر يدخل الولايات المتحدة يلاحظ ذلك بكل وضوح.

وخلاصة ما يصل إليه المتتبع لخطط وأهداف الإشهار الذي تبنته أمريكا والغرب من ورائها - باسم العولمة التي يعدونها النموذج الأمثل للتوحيد أمم العالم - هو أنه خطة منظمة للقضاء على الأخلاقيات ، ابتداءً من الأسرة إلى المجتمع ثم الأمة ، حيث يتم تفكيك كل القيم للهيمن أمريكا وأتباعها على العالم اقتصادياً وثقافياً كما تم لها عسكرياً ...

هوامش

1. يوسف القرضاوي ، المسلمون والعولمة ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، بور سعيد (مصر) ، 1421 هـ / 2000 م ، ص 67 .
2. جلال أمين ، العولمة (سلسلة اقرأ) ، دار المعارف - القاهرة ، ط2 ، 2002 ، ص124 .
3. محيي الدين عبد الحلیم ، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العلمية ، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر 2000 ، ط2 ، 1984 ، ص 75 .

4. جلال أمين ، العولمة ، ص 124 .
5. باسم علي حريسان ، العولمة والتحدي الثقافي ، دار الفكر العربي ، ط1 ، بيروت - 2001 ، ص 123 . عبد الفتاح محمد دويدار ، سيكولوجية الاتصال والإعلام ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة 1996 ، ص 277 .
6. محمد حسن الفحار ، شفت الذّهون (مقال في مجلة العربي) ، العدد 574 شعبان 1427 هـ / سبتمبر 2006 م ، الكويت ، ص 157 .
7. القرضاوي ، المسلمون والعولمة ، ص 15 .
8. جريدة الخبر ، الخميس 11 صفر 1428 هـ الموافق لـ 01 مارس 2007 م.
9. أنمار لطيف نصيف جاسم ، العالمية الجديدة ، المكتبة الثقافية ، بيروت ط1 - 2002 ، ص 132 وما بعدها .